من وجوه إعجاز القرآن الكريم

الإعجاز التشريعي

نذير حمادو*

مقدمة:

فقد جرت سنة الله سبحانه وتعالى في إرسال رسله الكرام عليهم السلام أن يظهر على أيدهم معجزات خارقة للعادة ليست في متناول البشر؛ تأييدا لهم في دعواهم الرسالة، وكانت معجزات الرسل السابقين أمورا حسية يراها من كان حاضرا في زمنها، فيتأثر بها، ويعلمها من جاء بعدهم بطريق الخبر، فلا يتأثر بها تأثر من رآها وشاهدها؛ لأن تلك الرسالات كانت خاصة بمن أرسل إليهم، محددة بوقت معين.

وأما معجزة خاتم المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد شاءت إرادة الله أن تكون من نوع آخر، أيّده بالقرآن الكريم "المعجزة العقلية" كما صرح به القرآن نفسه: ﴿ وقالوا لولا نزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يومنون﴾ [العنكبوت 50-51]. ويروي الإمامان البخاري ومسلم

---

* أستاذ مكلف بالدروس في الأصول وعلوم الحديث، بكلية أصول الدين والشريعة والحضارة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

في صحيحيهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليَّ، فأرجوأن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة﴾. وهذه المعجزة العقلية (القرآن الكريم) باقية خالدة، تحمل معها إعجازها إلى يوم القيامة، وذلك ما يتفق وعموم الشريعة الإسلامية وخلودها.

وقد ذكر علماء الشريعة وجوها كثيرة للإعجاز القرآني، إلا أنها في مجملها ترجع إلى الوجوه الآتية:

أولا: تحدى الله سبحانه وتعالى الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن فعجزوا جميعا بما فيهم العرب أرباب الفصاحة والبيان قال تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ [الإسراء 88].

ثم تحداهم بعشر سور منه، فعجزوا أيضا قال تعالى: ﴿أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ [هود 13-14].

ثم تحداهم بسورة واحدة منه، فعجزوا أيضا، قال تعالى:: ﴿أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله﴾ [يونس 38]، وكرر هذا التحدي في قوله: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة 23]. فكان عجزهم في المراحل الثلاث دليلا على أنه كلام الله.

ثانيا: بلاغة القرآن، وارتفاعها إلى درجة لم تعرف في كلام العرب قط، ونظمه المحكم الذي ليس على منهاج الشعر الموزون المقفى، ولا هوعلى منهاج النثر المسجوع، ولا على منهاج النثر المرسل، إنما هومنهاج قائم بذاته.

ولقد كان كفار قريش؛ لفرط تأثير

القرآن الكريم فيهم لا يدرون من أي ناحية يجيء التأثير. يقولون: إنه لسحر، وما هوبالسحر.

لقد روى مسلم في صحيحه أن أنيسا أخا أبي ذر الغفاري قال لأبي ذر: لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله، قلتُ فما يقول الناس؟ قال: شاعر، كاهن، ساحر. وكان أنيس من الشعراء ولكنه قال: سمعت قول الكهنة فما هوبقولهم، وقد وضعته على أقوال الشعراء فلم يلتئم على لسان أحد أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون[1].

ثالثا: إخبار القرآن الكريم على أمور مستقبلة وقعت كما قرَّرها ومن ذلك:

-إخباره بانهزام الفرس بعد انهزام الروم، فقد قال تعالى: ﴿ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع[2] سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ [الروم 1، 2، 3]وقد وقع الأمر كما أخبر القرآن الكريم.

-وقد وعد الله المؤمنين بالنصر في غزوة بدر الكبرى، فقال: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودُّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ [الأنفال 7]، وقد تحقق النصر.

-وقد وعد الله نبيَّه في القرآن بفتح مكة فقال: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا﴾ [الفتح 27]، وقد تحقق وعد الله تعالى.

---

[1] ـــ أصول الفقه للشيخ محمد أبوزهرة ص83 . قضية الإعجاز القرآني وأثره في تدويل البلاغة العربية للدكتور عبد العزيز عبد المعطي عرفة ص83 فما بعدها.

[2] ـــ البضع –بكسر الباء– من الثلاث إلى التسع. والمدة بين انهزام الروم وانهزام الفرس سبع سنين على التحقيق. انظر: تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور 21/ 44-45.

-وقد وعد الله تعالى المؤمنين أن يستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وقد قال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ [النور 53]، وقد تحقق ذلك الوعد الإلهي في حياته عليه الصلاة والسلام وعلى يد أصحابه من بعده.

وهذه الأخبار الصادقة على المستقبل دليل على أن القرآن الكريم من عند الله، وحديثه تعالى إلى خلقه[1].

رابعا: ما اشتمل عليه القرآن الكريم من حقائق علمية في شتى الميادين: كونية، طبية،.. إلخ. ما كان يمكن أن تكون لأمّي لا يقرأ ولا يكتب.

-قد أخبر القرآن الكريم أن السماوات والأرض كانتا شيئا واحدا ثم انفصلت الأرض عن السماء. قال تعالى: ﴿أولم ير الذين كفروا أنّ السماوات والأرض كانت رتْقًا ففتقناهما وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ أفلا يؤمنون﴾ [الأنبياء 30][2].

-أوضح القرآن حقيقة التكوين الإنساني فقال: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم جعلنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميّتون ثمّ إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ [المؤمنون 12-16][3]. وغير ذلك من الآيات الكونية والطبية مما هومبثوث في ثنايا القرآن، وما كان يتصور لمحمد صلى

---

[1] ــ أصول الفقه للشيخ أبي زهرة ص84.

[2] ــ انظر بشيء من التفصيل في العلوم الكونية كتاب: التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن للأستاذ حنفي أحمد ص200 فما بعدها.

[3] ــ انظر بشيء من التفصيل في أصل خلق الإنسان. كتاب: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للدكتور محمد علي البار ص 365 فما بعدها.

الله عليه وسلم أن يعلمه، وهو الأمي الذي نشأ في بلد ليس فيه معهد للعلوم، ولم يطلع على علم، ولم يكن ذا أسفار ينتقل فيها من بلد إلى بلد، بل لم يُعرف أنه غادر مكة إلى الشام إلاّ مرتين: إحداهما وهو غلام في الثانية عشر، والثانية وهو شاب في حدود الخامسة والعشرين، ولم يُعرف أنه جاوز مكة في غير هاتين الرحلتين، ومع ذلك نادى بالقرآن الكريم المشتمل على هذه الحقائق العلمية التي أثبت العلم الحديث صدقها؛ مما لا يدع مجالا لإنكار منكر لها، فهذا يدل على أن هذا الكتاب العزيز من عند الله خالق الكون سبحانه وتعالى[1].

خامسا: ما جاء به القرآن من شرائع بلغت غاية السمو والعدالة في الوقت الذي كانت فيه الأمم المتحضرة تقوم على العنصرية والظلم في تشريعها[2]، وهذا في نظري أهم وجوه الإعجاز؛ لما حوته أحكام القرآن من تشريعات تحقق الحق والعدل بين بني البشر. وإليك أمثلة على ذلك:

-سوى القرآن في أحكامه بين كل الناس فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وإذا ارتكب العربي ما يعاقب عليه لم يفلت من العقاب، وكان مساويا لغيره. ولم يكن كذلك قانون الرومان فقد جعل ما فيه من مزايا خاصة بالرومان، وجعل عقاب الروماني دون عقاب غيره، والقرآن الكريم لم ينقص إلاّ عقاب العبيد. فجعله على النصف من عقاب الأحرار؛ لأن الجريمة هوانٌ وهي تصغر بصغر المجرم، وتكبر بكبره، فتصغر على العبد، وتكبر على الحر. وقد كان القانون الروماني عكس ذلك، إذ جعل عقوبة الزاني من العبيد الإعدام، ومن

---

[1] ــ أصول الفقه لمحمد أبوزهرة ص74-75.

[2] ــ يقول ول ديورانت في قصة الحضارة: 383/13: "ولقد ظل القانون المسيحي يستخدم طريقة التحكيم إلهي بالقتال أوالماء أوالنار في الوقت الذي كانت الشريعة الإسلامية تضع طائفة من المبادئ القانونية الراقية ينفذها قضاة مستنيرون" اهـ

الأحرار إيذاء صغيرا.

-**المَدِينُ** إذا عجز عن سداد دينه في أجله المعلوم أمر القرآن الكريم الدائن أن يمهل المدين إلى حين قدرته على السداد. قال تعالى:﴿وإن كان ذوعسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ [البقرة 279]. أما في القانون الروماني فالدائن بالخيار بين قتل المدين واسترقاقه، ولا شك أن القانون الروماني في هذه المسألة ملؤه ظلم وجوْر بعكس القانون الإسلامي الذي ملؤه عدل ورحمة.

-**أعطى القرآن الكريم المرأة حقوقها كاملة**، قال تعالى: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أوكثر نصيبا مفروضا﴾ [النساء 7]، وقال تعالى: ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ [النساء 32]، وقال تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ [البقرة 226]، وما كان لها عند الرومان أي حقوق، فكانت قبل الزواج في رق أبيها، وبعد الزواج في رق زوجها حتى كان له أن يقتلها من غير أي ذنب. فجاء الإسلام وجعل لها شخصية كاملة وذمة كاملة منفصلة عن ذمة زوجها، ولم تنل هذا الحق الأخير إلى اليوم إلا في بعض القوانين الأوربية.

فما جاء به القرآن الكريم من شرائع مبنية على الحق والعدل لم يصل إلى مثلها أي نظام قانوني في العالم إلى اليوم، والقانونيون من الغرب يعترفون بأن الشريعة الإسلامية أمثل نظام قانوني عُرِف[1].

---

[1] ـ في مؤتمر لاهاي الدولي المنعقد سنة 1932م أعلن كبار المشتغلين بالعلوم القانونية ـ كـ لامبير- تقديرهم العظيم للشريعة الإسلامية، وكان الأزهر قد أرسل مندوبين عنه في ذلك المؤتمر وفي دورته المنعقدة في سنة 1927، وتقدموا ببحثين جليلين أحدهما عن المسؤولية الجنائية والمدنية في نظر الإسلام، والآخر علاقة القانون الروماني بالشريعة الإسلامية، ونفى ما يزعمه بعض المستشرقين

وقد جاء بكل هذا النظام أميّ لا يقرأ ولا يكتب، ولم يعلم أحد أن هذه الأحكام جاءت في قانون قبله، وإذا كان القانون الروماني قد كان نتيجة تجارب منذ ثلاثة عشر قرنا، وانتفع من نظم أثينا ونظم أسبرطة، وجمهورية أفلاطون، وكتاب السياسة لأرسطووغيره، ومع ذلك كان ناقصا لما جاء به ذلك الأميّ – عليه السلام – الذي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يجلس إلى معلم، فبأي شيء نفسر سبق شريعة القرآن، وإذا كان هويقول: إنها من عند الله، فبأي حق نكذبه والأمارات شاهدة والبيانات قاطعة.

وخلاصة القول: إن شريعة الإسلام هي أقوى وجوه الإعجاز في نظري، وهي الدالة على إعجازه إلى يوم الدين[1].

من تأثر الفقه الإسلامي بذلك القانون. وكان من أثر ذلك أن قرر المؤتمر بالإجماع اعتبار الشريعة الإسلامية مصدرا من مصادر التشريع العام في القانون المقارن، واعتبارها حية صالحة للتطور، وأنها قائمة بذاتها ليست مأخوذة من غيرها، وفي المؤتمر الثالث خصص أسبوع للفقه الإسلامي، حضره عدد كبير من المشتغلين بالعلوم الإسلامية من الشرق والغرب برئاسة ميلوأستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق جامعة باريس. وعرضت فيها أبحاث عن إثبات الملكية، والامتلاك للصالح العام، والمسؤولية الجنائية. وتأثير المذاهب الاجتهادية في بعضها، ونظرية الربا في الإسلام. وأبدى المؤتمرون غاية إعجابهم بالشريعة الإسلامية مما أزال عن أذهانهم ما كان يسمعونه عن جمود الشريعة الإسلامية وتخلفها. واتخذت قرارات إجماعية في ذلك المؤتمر باعتبار مبادئ الفقه الإسلامي ذات قيمة قانونية تشريعية لا يمارى فيها، وأن اختلاف المذاهب الفقهية ينطوي على ثروة من المفاهيم والمعلومات من الأصول القانونية الجديرة بالإعجاب، والتي يتمكن بها الفقه الإسلامي من الاستجابة لجميع مطالب الحياة الحديثة، والتوفيق بين حاجياها. انظر: المدخل للفقه الإسلامي للأستاذ محمد سلام مذكور ص24 فما بعد.

---

[1] – راجع أصول الفقه لأبي زهرة ص88، المدخل للفقه الإسلامي، مدكور ص24 .